تـمّ تحميـل هـذا الملـف مـن مكتبـة الأديـب الرّاحـل رمضـان لاونـد | جميـع الحقـوق محفوظـة © www.RamadanLawand.com

الأَديب و المُفكِّر الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَند

سيّد المنابر

برنـامج
في عالم الحب الإلهي
الحلقة السابعـة

مقدمة البرنامج .....

مؤثرات .....

- نحن اليوم مع سلطان العاشقين .. مع الشاعر الصوفي الذي طار له صيت في كل ناد وانتشر له أرج في كل واد وانتقلت بذكره الركبان حتى سمي بحق سلطان العاشقين .
- إنه أبو حفص عمر بن الفارض من مواليد القاهرة خرج إلى الدنيا عام 576 هـ وتوفي في القاهرة في اليوم الثاني من جمادي الأول عام 632 هـ . وهو في الأصل من أسرة حموية .
- ويقول بعض المترجمين له : إن لأصل ابن الفارض الشامي أهمية في طبعه فأهل الشام في الأدب القديم تغلب عليهم رقة الطبع ، ولهم شغف بصور الجمال ، ونزعتهم الغزلية فيها لين يندر مثله في مصر والعراق .
- وقد كان أبو بكر الخوارزمي أول من نادى بهذا الرأي وكشف عن هذه الميزة في شعر أهل الشام حين قال منذ عشرة قرون : " ما فتق قلبي وشحذ فهمي وصقل ذهني وأرهف حد لساني وبلغ بي هذا المبلغ ، إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي"..
- والجدير بالذكر أن خلود ابن الفارض في شعره مدين لنزعته الصوفية . ذلك لأن كل الفنون الشعرية المعروفة في عصره قد سبق فيها من قبل عمالقة في الفن كبار .. فهناك أبو نواس منازع له كبير في بعض شعره ثم هناك الشريف الرضى منافس قوي له غير مدافع في بعضه الآخر. أما في الصبابة فإنّ له في العباس بن الأحنف ما يجاوزه أشواطاً كثيرة .

- والواقع أن النزعة الصوفية قد ميزت شعر ابن الفارض بالمعاني الرمزية فغذا شعره معرضاً للمعاني التي تثير اهتمام النقاد . إن قيمة ابن الفارض في شعره ليست في مباينه وألفاظه فهو في هذه وتلك ضعيف لو قورن بسواه ولكنها في المعاني ترتفع به إلى درجة الفحول .
- ويقول الدكتور زكي مبارك في تعقيب له على بعض شعر ابن الفارض : هو فحل من الفحول لأنه استطاع الجمع بين الحقيقة والخيال والحقيقة عند هذا الشاعر هي الصورة الروحية . أما الخيال فهو الصورة الحسية التي رمز بها إلى المعنويات .
- ويقول بعض الرواة إن قوة الخيال عند ابن الفارض جعلت الشعر يفيض عنه بطريقة عفوية حتى روي أنه نظم بعض شعره في المنام ومنه هذا البيتان :

وحيــاة أشواقي إليـك وحرمة الصبر الجميل

ما استحسنت عيني سواك ولا صبوت إلا خليـل

فاصل موسيقي .....

- والشعر حين يفيض عن النفس في حماسة وعفوية وقوة هو وحده الذي يتميز بالأصالة . والثابت أن ابن الفارض كان لا يقول الشعر إلا بعد أن تكون المواحيد الصوفية قد صرفته عن كل شيء وكل إنسان .. ولما كان موضوع الوحدانية هو موضوع حبه الكبير فمن الطبيعي جداً أن تكون هذه الوحدانية هي مادة فنه وينبوع صوره ومصدر أحلامه .
- ويقول بعض المؤرخين لفنه إن ابن الفارض بقي أربعين عاماً ينظم الشعر . والأعوام الأربعون مدة طويلة تتعاقب فيها على المرء أحداث وغيره . فهو في فترة منها في مرحلة الشباب ثم في مرحلة الكهولة .
- أما الشباب فله صولته وانفعالاته ونزعاته الحسية إنه يواجه الدنيا بحواسه وهذا شيء طبيعي جداً . يحب بحسه ويكره بحسه . ويتصل بالمعاني كلها عن طريق حواسه . أما الكهولة فهي أقدر على التجريد وأشد اتصالاً بالمعاني وأقل اهتماماً بالأبعاد المادية للأشياء ناهيك عن حيوية الحس الدافقة في أيام الشباب وبرودة هذا الحس في أيام الكهولة .
- هنا يلاحظ أن شعر ابن الفارض في شبابه أشد اتصالاً بالحس . فالمحبوب عنده ذو أبعاد حسية . الجمال عنده يتشكل على الصورة التي تتفق مع صبوات الشباب . ويقول الرواة إن ابن الفارض كان في

صباه مضرب المثل في استواء الجسم ورشاقته وملاحة القسمات ونضارتها . فلا عجب أن تنعكس هذه الصفات حنيناً ورقة في شعره .

- على أن هذا الحب الحسي عند ابن الفارض لم يلبث حتى أسلم صاحبه إلى الحب الروحي العميق الذي فجر في نفسه فنوناً من الصور والانفعالات الرقيقة الحلوة . وإذا بكل شعره من بعد همسات وجد إلهي ومناجاة حب سماوي وسعي متصل للاتحاد العميق بالمعاني الإلهية الكبيرة .
- لكن هذه الصبوات الروحية عند ابن الفارض لم تسلم من التكلف في بعض الأوقات .. بل إن التكلف عنده ينازع الفطرة وعفويتها في عدد غير قليل من قصائده الشعرية . وفي رأي بعضهم أن كثرة الشعر المتكلف عند ابن الفارض ناجمة عن وضع عدد غير قليل من القصائد ونسبتها إليه. وابن بنت الشاعر هو في مقدمة الوضاع أو لعله الواضع الأكبر للشعر الذي نزل بنتاج جده من أمه.

فاصل موسيقي .....

- قلنا في بداية هذه الحلقة أن ابن الفارض قد لقب بلقب " سلطان العاشقين " . وقد كان شاعرنا نفسه حريصاً على هذا اللقب حفياً به يلح على أن يكون وقفاً عليه . ولذلك فقد اعتبر نفسه أمام العاشقين وجعل محبوبه إمام الملاح حين قال يناجي ربه :

كُلُّ مَن في حِماكَ يَهوَاكَ، لكِن أنا وحدي بِكُلّ من في حِماكا
فيكَ مَعْنًى حَلاكَ في عَينِ عَقْلي، أُلفِهِ، نحوَ باطِني، ألقاكا
فقتَ أهلَ الجمالِ حسناً وحسنى فبِهِمْ فاقةٌ إلى مَعناكا
يحشرُ العاشقونَ تحتَ لوائي وجميعُ المِلاحِ تحتَ لِواكا

- ويقول ابن الفارض في وصفه لنحوله الذي أحدثه له عشقه الإلهي أقوالاً كثيرة . فيصف هذا النحول بصور متعددة منها المقبول ومنها المتكلف فهو به يضنى حتى يخفي عن العواد وهو به يضني حتى يخفي عن نفسه ويقول في مكان ثالث أنه بهذا النحول يضني حتى يكاد يشف عما يضمر من أسرار الهوى . وأنه ما يزال يضني به حتى خفي عن برء الأسقام وبرد الأوام فيقول :

يشِفُّ عنِ الأسرارِ جِسْمي مِنَ الضَّنى، فيَغدوا بها ، معنًى ، نُحولُ عِظامي
طَريحُ جَوى حبٍّ ، جريحُ جَوانحٍ، قَريحُ جُفُونٍ ، بالدَّوامِ دَوَامي
صريحُ هوىً ، جارَيتُ منْ لُطفيَ الهوا، سُحَيْراً ، فأنْفاسُ النَّسيمِ لِمامي

صَحيحٌ ، عليلٌ ، فاطلُبوني مِنَ الصَّبا، ففيها ، كما شاءَ النُّحولُ ، مُقامي
خَفيتُ ضَنىً ، حتَّى خَفيتُ عَنِ الضَّنى، وعَنْ بُرْءِ أسقامي ، وبَرْدِ أُوامي
ولمْ يُبْقِ مِنِّي الحبُّ غَيْرَ كآبَةٍ، وحُزْنٍ ، وتَبريحٍ ، وفَرْطِ سَقامِ
ولمْ أدرِ منْ يدري مكاني ، سوى الهوَى، وكِتمانَ أسراري ورعيَ ذمامي
فأمَّا غَرامي واصطباري وسلوتي، فلمْ يَبْقَ لي منهنَّ غيرُ أسامي
لِيَنْجُ ، خَلِيٌّ مِنْ هَوايَ ، بِنَفْسِهِ سَليماً ، ويا نَفس : اذْهبي بسَلامِ

- والجدير بالذكر أن شاعرنا سلطان العاشقين قد أسرف في استحضار صورة المحبوب . فهو في كل شعره تقريباً لا يشغلنا إلا بالحبيب الذي يصرفه عن كل من سواه . فهو دائم الانشغال به حريص على تحقيق قربه مشتاق إلى اختلاس كل لحظة من لحظات العمر يستزيد بها متعة ولذاذة ..
- وقد بلغ من شوقه لهذا الحبيب واصراره على استحضاره أنه تحدث إلى من يحب أن يسمعه مؤكداً استعداده لتقديم روحه هدية لمن يبشره باقتراب موضع هواه منه . فيقول في هذا المعنى :

وحياتكم وحياتكم قسماً وفي عمري بغير حياتكم لم أحلف
لو أن روحي في يدي ووهبتها لمبشري بقدومكم لم أنصف

- ومع ذلك فإنّ هذا الحبيب يسد عليه كل المنافذ ويواجهه في كل مكان وعلى كل صورة .. هو يراه في ملامة العذال وفي التماع البرق وفي نغمة العود والناي وفي مسارح الظباء وفي برد الصباح والأصيل وفي مساقط الأنداء على بساط الأزهار وفي أذيال النسيم . كما يراه في ثغر الكأس . ثم هو لا يحس بالغربة ولا يضيق بشيء مما حوله ما دام أن المحبوب قريب منه .
- ها هو يقول في هذه المعاني :

تراه إن غاب عني كل جارحة في كل معنىً لطيف رائق بهيج
في نغمة العود والناي الرخيم إذا تآلفا بين ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الأصائل والأصباح في البلج
وفي مساقط أنداء الغمام على بساط نور من الأزهار منتسج

- ثم يتابع حديثه عن الحضور الإلهي فيقول إنه يرى محبوبه :

وفي مساحب أذيال النسيم إذا أهدى إليّ سحيراً أطيب الأرج

وفي التثامي ثغر الكأس مرتشفا ريق المدامة في مستنزه فـرج

لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي وخاطري أين كنا غير منـزعج

موسيقى نهاية .....